كتاب صيني في علم الحرب

(ملخصة من مقالة في هذا الموضوع للكاتب سنت لوي سترايي في جزء مارس من مجلة القرن الثاني عشر)

عند الصينيين كتاب في علم الحرب وضعهُ رجل اسمهُ سن تزو نشأ في زمن الامبراطور هولو قبل المسيح بأربعمائة سنة اي قبلما قام ارسطوطاليس على تعليم الاسكندر المكدوني. ولهذا الكتاب شأن كبير عند الصينيين وقد شرحهُ الشرّاح منهم ورووا عن مؤلفهِ قصة غريبة لكنها تدل على مقدار ثقتهِ بالقواعد التي اشار بها في كتابهِ قال احد الشراح

قال الملك هولو ذات يوم لقد طالعتُ الفصول الثلاثة عشر من كتابك فهل ترى ان نمتحن رأيك في تدريب الجنود. فقال سن تزو نعم. فقال هولو أوَ يمكن امتحان ذلك في النساء. فاجابهُ سن تزو بالايجاب. وتم الاتفاق على ان يخرج ١٨٠ من سراري القصر فيمتحن سن تزو فيهنَّ اسلوبهُ في التدريب الحربي. فخرجنَ اليهِ وقسمهنَّ الى فرقتين واقام اثنتين منهنَّ رئيستين على الفرقتين وسلَّم الى كل واحدة من السراري حربةً وقال لهنَّ افلكنَّ تعرفن الفرق بين الامام والوراء وبين اليمين واليسار. فقلن نعم. فقال اذا قلت لكنَّ «امام» وجب ان تلتفتن الى ما امامكنَّ واذا قلت يسار وجب ان تدرن الى اليسار واذا قلت يمين وجب ان تدرن الى اليمين واذا قلت دونَ وجب ان تدرن الى الوراء. فقلنَ نعم. وضُرب الطبل حينئذٍ ونادى قائلاً «يمين» فلم يدرن الى اليمين بل الغرن في الضحك. فقال اذا كان الجنود لا يفهمون اوامر القائد لانها غير واضحة او لانهم لم يسمعوها فاللوم ليس عليهم بل عليهِ. ولما كفكفن عن الضحك ناداهنَّ قائلاً «شمال» فلم يدرنَ بل عدنَ الى الضحك. فقال اذا كانت اوامر القائد غير واضحة فلم تفهم تمام الفهم فاللوم عليهِ ولكن اذا كانت واضحة مفهومة ولم يعمل بها الجنود فاللوم على رؤسائهم. وحينئذٍ امر بان يقطع رأسا الرئيستين

وكان الملك يرقب ما هو جار من كثب مرتفع فلما سمع ما امر بهِ سن تزو اضطرب وارسل اليهِ يقول لقد رضينا عن تدريبك للجند ولكننا غير راضين

عن قتلك هاتين الحظيتين ولا نسمح لك بقتلهما . فقال سن تزو ان جلالة الملك قد سلم اليّ قيادة هذا الجيش فانا المسؤول عنهُ ولا استطيع ان اعمل الاّ ما توجبهُ هذه القيادة . ثم قطع رأسي الحظيتين ونصب اثنتين مكانهما وامر السراري بالالتفات يمنة ويسرة ودوّبهنّ تدريباً تامًّا فاطعنّ كل اوامره بالدقة التامة. وحينئذٍ ارسل الى الملك يقول لهُ ان السراري قد تدربن على الحركات الحربية ودعاهُ لمشاهدتهنّ . فسرّ الملك بهِ واقامهُ قائداً على كل جنودهِ فدوّبهم وحارب بهم اعداء المملكة شمالاً وغرباً فتغلب عليهم

واذ قد تمهد ذلك نعود الى كتاب سن تزو معتمدين على ترجمة ليونل جيلز ونختار منها بعض الفقرات الدالة على حقيقة الكتاب واولها الفقرة التي اختارها منهُ اللورد روبرتس القائد البريطاني الشهير وهي

ان صناعة الحرب تعلمنا ان لا نعتمد على ترجيحنا ان العدو لا يهاجمنا بل على استعدادنا لمقابلته اذا هاجمنا. اي ان لا نتكل على انه قد لا يهجم علينا بل على اننا في موقف يستحيل عليه مهاجمتنا فيه

اورد الكاتب هذه الفقرة وقال انهُ نبّه الاذهان اليها في جريدة الكتائب منذ سنة ١٩١٠ وودّ ان تكتب بحروف كبيرة على مكتب رئيس الوزراء ومكتب وزير البحرية ومكتب وزير الحربية ولكنهم لم ينتبهوا لها (فاخذتهم المانيا على غرة) ثم اورد فقرات اخرى من الكتاب المشار اليهِ وعلّق عليها بعض الشرح فاكتفينا بايرادها وهي

"صناعة الحرب ضرورية للمملكة لان حياتها وموتها متوقفان عليها فهي سبيل النجاة او الهلاك ولذلك لا يجوز لاحد ان يهملها

ثم التفت سن تزو الى الضباط فاوصاهم بان يلبسوا لكل حالة لبوسها ولا ينقادوا لاوامره انقياداً اعمى غير مراعين احوال الزمان والمكان فقال

اعتمدوا على نصائحي ولكن راعوا ايضاً وقائع الحال وعدّلوا خططكم بموجبها

وعقب المترجم على ذلك مورداً قصة مشهورة عن ولنجتون وهي ان لورد اكسبردج قائد الفرسان اتاهُ ليلة معركة وترلو وسألهُ عن الخطة التي يقصد الجري عليها في اليوم التالي حتى اذا افضت القيادة اليهِ يجري هو عليها. فقال لهُ ولنجتون من يكون الهاجم غداً أنحن ام بونابرت . فقال بونابرت . فقال ولنجتون ولكن بونابرت لم يخبرني عن خطتهِ فكيف تنتظر مني ان اعرف ماذا يجب ان تكون خطتي

ثم عاد الى قواعد الكتاب فاورد منها ما يأتي

الحرب خدعة . فاذا كنت قادراً على الهجوم فتظاهر بانك غير قادر عليه واذا كنت قريباً من عدوك فتجنب حتى تظنه انك بعيد عنه واذا كنت بعيداً فتجنبه حتى تظنه بانك قريب

اذا كان مزاج عدوك صفراوياً فتجنبه حتى تغيظه وتحرك الصفراء فيه

الهجوم يجب ان يكون اساس الدفاع والدفاع تمهيداً للهجوم

الماهر في الهجوم يقض على خصمه اقتضاض الصاعقة من السماء

تقتك بانك لا تقهر تستلزم ان تكون قد احتطت للدفاع . ومقدرتك على قهر خصمك تستلزم قدرتك على الهجوم

لا تستطيع ان تستفيد من احوال المكان ما لم تستخدم ادلة من مكانه

لتكن سرعتك سرعة الطائر وليكن انضمام رجالك انضمام اشجار الغاب

لتكن خططك خفية كالليل وليكن هجومك سريعاً كالصواعق

حالما تصير القهر ابتعد عنه

اذا اجتمعت الطيور في مكان فليس فيه احد

اذا سنحت لعدو فرصة ولم ينتنها بجنوده خائرة القوى

اذا افتاظ الضباط فالجنود متمردة

اذا عاقبت جنودك قبلما تقوى محبتهم لك لم تجد منهم الطاعة الواجبة واذا لم يطيعوك فلا فائدة منهم . واذا تعلقوا بك ثم جعلت تمتنع عن مقابلتهم فلا تنتظر منهم فائدة . ولذلك يجب ان يعامل الجند بالتؤدة في اول الامر ولكن يجب ان لا يسن عقابهم على كل هفوة

عامل جندك كما تعامل اولادك فيتبعوك الى اعمق الاودية

وانظر اليهم كما تنظر الى ابنائك الاعزاء فيفتدوك بارواحهم

القائد الذي يتقدم غير قاصد الشهرة ويتأخر غير خائف من العار ولا يفكر الا في حماية وطنه والقيام بما يجب عليه للملك جوهرة في تاج بلاده

اذا جاءت ساعة الشدة فالقائد الحازم يفعل كما يفعل من يرتقي سلماً الى مكان مرتفع ثم يقطع السلم وراءه لكي يتبع

وخص الفصل الاخير من كتابه بما يجب ان يعرفهُ قائد الجيش من امور خصمهِ وكيف يصل الى هذه المعرفة بواسطة الجواسيس وهم بمثابة قلم المخابرات فقال

ان هذه المعرفة لا تهبط بالوحي ولا تعلم بالاستقراء ولا بالاقيسة المنطقية . وانما تعلم بواسطة بعض الرجال اي الجواسيس وهم خمسة انواع الجواسيس المحليون . والجواسيس الداخليون . والجواسيس المصطنعون . والجواسيس المقضي عليهم . والجواسيس الذين نجوا من الموت

فاذا استعنت بكل هؤلاء فلا احد يستطيع ان يكتشف اسرارك

الجواسيس المحليون هم الذين تستخدمهم من سكان البلاد التي انت فيها . والجواسيس الداخليون هم من رجال العدو انفسهم . والجواسيس المصطنعون هم جواسيس العدو الذين تقبض عليهم

وتغريبهم بالهبات حتى يخدموك . والجواسيس المقفي عليهم هم الذين تدسهم بعلمون عملاً جهاراً ثم تدع جواسيك يعرفونهم ويخبرون العدو عنهم . والجواسيس الذين نجوا من الموت هم الذين يعودون بالاخبار من العدو

وعلى القائد ان يكون على اتصال تام بالجواسيس وان يجازيهم احسن الجزاء . وان يحفظ سرهم ويكتم امرهم تمام الكتمان

ولا يتسنى للقائد بالجواسيس ما لم يكن فطناً حسن الفراسة لتكي يميز صحيح اخبارهم من كاذبها ولا يمكن الاعتماد على الجواسيس اذا لم يعاملهم بالكرم والصراحة

اذا افشى جاسوس سراً قبل الوقت المناسب لافشائه وجب قتله هو والرجل الذي افشى السر له

واذا كان الغرض قهر عدو او اجتياح مدينة او اغتيال شخص فالواجب ان تتعرف اولاً بأتباع حاشيته وحراسه وحجابه وهذا من اعمال الجواسيس

اذا اتاك جواسيس العدو قبل العدو فارشهم واغرهم واحسن مثواهم فتصطنعهم ويخدمونك . وبواسطتهم تستطيع استخدام الجواسيس المحليين . وبواسطة هؤلاء تستطيع ان ترسل اخباراً كاذبة الى العدو

والغرض من الجاسوسية مهما كان نوع الجواسيس هو الوقوف على احوال العدو . والجاسوس المصطنع اقدر الناس على ايقافك على ذلك فامهر الحكام وامهر القواد يستخدمان اذكى من في الجيش للتجسس فينتج لهما احسن النتائج

الجواسيس هم عناصر الحرب لان عليهم تتوقف مقدرة الجيش على الزحف انتهى

نقول ان هذه القواعد على ما فيها من المهارة لم تزد على انها حفظت للصينيين بلادهم لكنها لم تتقدم بهم في الفي سنة عشر ما تقدمتهُ اميركا في عشر سنوات فكانت فائدتها سلبية لا ايجابية منعت انحلال بلاد الصين ولكنها لم تزد في عمران الصينيين ولا في سطوتهم ولا حفظتهم من تغلُّب اليابانيين عليهم . مع ان الصينيين اكثر من اليابانيين ستة اضعاف وعمرانهم اقدم من عمران اليابانيين وارسخ

وقد عقّب الكاتب على هذه القواعد وعلى الشروح التي نقلها بما مفادهُ انها اوامر مادية جافة تنظر الى الناس كانهم اشجار في غاب تقطع منها ما تشاء وتبقي ما تشاء وتستعمل في قطعها الفؤوس او المناشير حسب كونها غليظة الجذع او دقيقتهُ من غير نظر الى نفوسها . ولعلهُ لو امعن نظرهُ في اوامر الحروب الحاضرة لوجد ان اكثرها صار من هذا القبيل مع ما بذلهُ الفضلاء من وضع القواعد التي يراد بها منع العدو من الحرب وتقليل الضرر والالم على قدر الامكان . ولولا ما تفعلهُ لجان الاعتناء بالجرحى والمرضى وما تقيدت بهِ الدول من استحياء الاسرى واعانتهم لصارت حروبنا اقطع من حروب الصينيين